سينما

رينوار في كالكوتا

بقلم
ساتياجيت راي

ترجمة
عبد الكريم ناصيف

كان قراري بأن أرى رينوار في فندقه قراراً مستحيل تقريباً. فعلى الرغم من أن وصوله الى كالكوتا لم يحظ بتركيز كبير من وسائل الاعلام، فان الحركة التي سببها بين طلاب السينما المحليين كانت كبيرة، ذلك لأن زيارته لم تكن زيارة مصادفة فقد كان لرينوار مهمة سينفذها هنا في كالكوتا. لقد جاء بقصد العمل الا وهو اخراج فيلم مأخوذ عن رواية رومر غودين « النهر » وخلفيتها الحقيقية في البنغال.

على ان الشهرة تحيط الانسان بهالة يتعذر معها الوصول اليه، وكنت قد بلغت حافة اليأس تماما من امكانية مقابلة المخرج العظيم عندما التقيت مصادفة بكلايد ديفينا. كان هذا الامريكي الذابل ذو الملاحظات البارعة، ديفينا، قد اكتسب بعض الشهرة ومقدارا كبيرا من الخبرة في مطلع الثلاثينات من هذا القرن بتصويره فيلم « قرن التاجر » وهو الآن يعتبر خبيرا في التصوير الخارجي وقد ارتبط بعقد للاشراف على تحديد اللقطات الأولية للنهر بالتكنيكولور ذي المجموعة الواحدة. وقد عمل ديفينا على تهدئة بخاطري بتأكيده لي - هو مرح كل المرح - أن جان شخص عظيم وفردانـي كبير ويمكن الوصول اليه بغاية السهولة وأن بامكانـي أن اراه في أي يوم في فندقه مساء.

وكما تبين لي فيما بعد، فان رينوار لم يكن قريب المنال وحسب، بل انه مهذب ومتواضع الى حد مزعج حتى انني شعرت حين قابلته بأنني لو لم أكن حذرا جدا فربما سأجد أنني أنا الذي يتحدث عن مستقبل السينما وهو الذي يستمع. كانت هناك أشياء كثيرة أود سؤاله عنها: لماذا رغب في اخراج «النهر»؟ هل يسره اخراج الافلام في هوليود؟ لكن حيث سنحت لي فرصة توجيه هذه الاسئلة وجدت نفسي وقد اختلط الأمر علي واضطربت فلم اخرج الا بسؤال تافه هو: هل احببت الهند؟

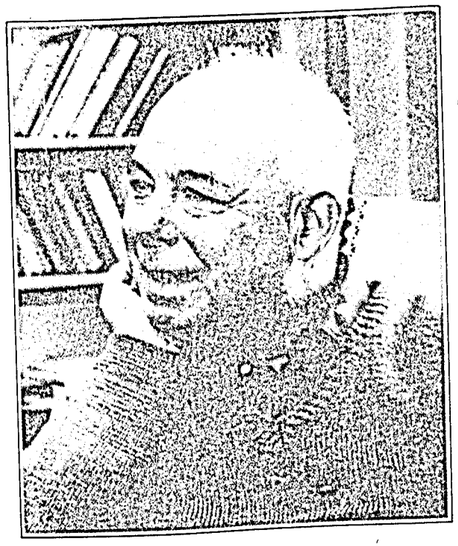

رينوار

أجابني رينوار بكثير من الجد « سوف اجيبك على سؤالك عندما اعرفها على نحو أفضل. لقد بدأت حاليا أفهم مدينة كالكوتا التي اجدها ممتعة كثيرا. كان لدى رينوار الكثير مما يود قوله عن الجولتين أو الثلاث التي قام بها من قبل في المدينة وعلى نهر الغانج الذي كان قد سحره بقوار به ذات الطراز القديم وبكل تلك الاشياء الزاهية الألوان التي رآها هناك. قال لي « اتعلم؟ يبدو لي ان الهند قد احتفظت بشيء من سحر وبساطة الحياة البدائية. فالطريقة التي يسحب بها اصحاب الزوارق مجاذيفهم، وبحرث الفلاحون حقولهم، وتنشل النساء المياه من الآبار كلها تذكرك بالصور الجدارية واللوحات النافرة التي بقيت في مصر عن عهود الفراعنة».

كان رينوار قد التقى بأسرة للاجئين شقت طريقها من الباكستان الى كالكوتا بالقارب، وقد واجهت كل أنواع المغامرات العجيبة في طريقها. « قال رينوار » انني واثق ان قصة هذه الأسرة ستكون فيلما رائعا. فقلت ان الهند مليئة بقصص كهذه، قصص تطالب بمن يصنع منها افلاما. « لاشك أنها ستصبح افلاما » قال رينوار باقتناع تام. فقلت « لا لأن المخرج الهندي، على ما يبدو، يجد من الالهام في افلام هوليوود الاصطناعية الباهتة أكثر مما يجد في الواقع المحيط به » آه، الفيلم الامريكي..» وهز رينوار رأسه بأسى « انني اعلم مقدار ما له من تأثير سيء».

بعد ذلك مباشرة، وأثناء حضوره حفل استقبال اقامته على شرفه جمعية السينما في كالكوتا، وجد رينوار نفسه أمام وابل من الاسئلة تتراوح ما بين أشد الاسئلة سخفا وأكثرها ابهاما، وقد أجاب عليها جميعا براحة وصراحة كيرتنين وبانكليزيته الساحرة المكسرة. قال رينوار، ردا على سؤال عن « النهر »، انه بالمصادفة وقع على مراجعة للرواية في مجلة « النيويوركر » فبدا له ملخص الرواية، كما قدمته النيويوركر، محتويا على عناصر فيلم مثير. قرأ الرواية، فرسخت قراءته لها انطباعه عنها، فشرع على الفور بالاستعداد لمعالجتها سينمائيا.

لم أكن قد قرأت الرواية، ولم تكن لدي فكرة عن مسار القصة، سوى انها تتعلق بنهر في البنغال (يفترض انه الغانج). لكن بعد كل ما رأيته من أفلام مرعبة ومشوهة عن الهند اخرجتها هوليوود، كنت اتطلع بشوق حقيقي لان ارى مخرجا كبيرا يتناول مشاهد الهند. لذلك اصبت بنوع من الاحباط الشديد حين سمعت قول رينوار انه يخرج فيلم النهر لجمهور امريكي، أي أنه لم يكن يتضمن الا شخصية محلية واحدة - خادما لدى اسرة اوروبية، وأن علينا الا نتوقع الكثير فيما يتعلق بالهند الحقيقية في الفيلم. بالطبع ستكون الخلفية هندية حقيقية نظرا لأن كل اللقطات ستؤخذ في منطقة كالكوتا. ولم استطع ان امنع نفسي من الشعور بأنه نوع من المبالغة ان يأتي رينوار من كاليفورنيا الى كالكوتا لا لشيء الا لكي يصور الأرض فقط.

« ما الذي يحل بالمخرجين الكبار من القارة الاوروبية حين يعملون في هوليوود؟» كان هذا احد الاسئلة التي تدور في اذهان معظمنا الا أن القلة منا تسنى له ان يرى النور اخيرا، أدهشنا شوق رينوار للاجابة عنه وأراحنا.

« سأقول لكم» رد رينوار بجيا « سأقول لكم ما يحدث لهم. انه الهوس الامريكي بالتنظيم، هذا الهوس هو الذي يصيبهم بالاحباط. لا بد أنكم سمعتم بهذا الهوس طبعا، لكنكم لن تعرفوا شيئا قبل ان تروه عمليا. افرضوا انكم في الولايات المتحدة وأنكم تودون الذهاب الى مكان ما، فانكم تذهبون الى محطة لأخذ قطار هناك، فماذا تجدون؟ انكم

تجدون أن القطار يأتي في الوقت المحدد، تماما في الوقت المحدد. الآن يبدو هذا غريبا جداً. ففي فرنسا لا تصل القطارات في الوقت المحدد، وليس المرء معتادا على هذه الدقة في المواعيد وهذا ما يجعله يشعر بنوع من عدم الارتياح. بعدئذ يذهب للعمل في الاستديو يكون في الطابق جاهزا للعمل، فماذا يجد؟ يجد أن عليه أن يتبع الجداول المخططة، ويجد أن هناك الكثير منها، مما يعني أن عليه أن يسير حسب الوقت المحدد أيضا. بعد ذلك يبدأون بالتدقيق. يدققون الصوت مرة ومرة الى أن يحصلوا على الصوت الصحيح تماما، ثم ينتقلون الى الاضاءة، يضبطونها المرة تلو المرة أيضا، مثلما فعلوا بالصوت الى ان يتوصلوا الى افضل حالات الاضاءة وهو الامر الذي يسر المخرج بالتأكيد. لكنهم بعدئذ يعملون على ضبط إلهام المخرج - وهذا هو الأمر الذي لا يسره».

يشعر رينوار أن أحسن النوايا قابلة للتبخر في هوليوود وذلك لعدة عوامل ثابتة لا تتغير. ذكر رينوار ثلاثة منها باعتبارها أكثر العوامل وضوحا وهي: النظام الذي يعمل به نجوم الشاشة، قوانين المراقبة التي لا تحصى والاتجاه العام الذي يعتبر الافلام بمثابة سلعة من سلع انتاج - الجملة. لذا فان المرات التي يكون المخرج فيها محظوظا جدا هي مرات نادرة وذلك حين يجد القصة المناسبة والنوع المناسب من الممثلين (لا النجوم) الذين يمثلون القصة. وكذلك الشكل المناسب من الحرية في اخراجها، وتكون النتيجة فيلما جيدا. وقد أتاحت هوليوود مثل هذه الظروف المثالية لرينوار مرة واحدة فقط، وذلك حين أخرج فيلمه «ابن الجنوب».

كذلك يعتقد رينوار ان افضل الأفلام في بلد من البلدان هي ما ينتجه هذا البلد في الايام العصيبة: أي أن جو الرضا الذاتي والاعتداد بالنفس ليس لصالح السينما. « انظروا ما فعلته الحرب بالافلام الايطالية» قال رينوار « انظروا الى فيلم « مقابلة صغيرة»، أنا لا أظن أن فيلما عظيما كهذا كان بالامكان اخراجه لولا تلك الغارات الجوية المروعة التي عانت منها لندن. وانني لأعتقد أن ما تحتاجه هوليوود فعلا انما هو شيء من القصف».

« انظر الى تلك الازهار» قال رينوار مشيرا الى شجرة « بالاس» وهي بكامل ازهارها. وكانت هذه اول مناسبة من عدة مناسبات اسعدني الحظ فيها بأن ارافقه في جولاته بحثا عن أماكن للتصوير. « تلك الأزهار» تابع رينوار « جميلة للغاية. لكن يمكن ان تجد ازهارا في امريكا ايضا. زهور البونيستيا مثلا، تلك الزهور البرية التي تنمو في كاليفورنيا. لكن انظر الى تلك المجموعة من أشجار الموز وتلك البركة الخضراء عند اسفلها. انك لا تستطيع ان تجد مثلها في كاليفورنيا.. وتلك هي البنغال». ان بامكان المرء ان يرى ذلك وهو يبحث عن اماكن للتصوير. ان كان رينوار يبحث ايضا عن « اللون المحلي»، عن تلك العناصر الجوهرية، في المناظر الطبيعية التي قد تكون فعالة تصويريا والتي تستدعي فعلا جو هذه البلاد. وقد بيّن الأمر بنفسه حين قال: « ليس عليك أن تعرض أشياء كثيرة في الفيلم، انما عليك ان تحرص على عرض الاشياء الصحيحة والمناسبة فقط».

ان حماسة رينوار وطاقته امر فريد فعلا بالنسبة لرجل في مثل سنه وأبعاده. فهو ينتقل اميالا واميالا في مناطق وعرة كي يجد المنظر المناسب الذي يحمل اللون المحلي الصحيح. وفي بعض الأحيان كان يستغرق في عمله استغراقا تاما الى حد أن زوجته تضطر لتوجيه بعض الملاحظات اللطيفة مثل: « عليك ألا تظل طويلا تحت الشمس يا جان» أو « جان، يجب الا تنسى موعدك الساعة السادسة، أليس كذلك؟».

خلال تلك الجولات تحدث رينوار كثيرا عن نفسه: عن صباه، عن والده، والاشخاص الآخرين العظام من اتباع الحركة الانطباعية، كما تحدث عن السيراميك - هوايته العظيمة الاخرى الى جانب السينما، وعن السينما ذاتها. فخلال الحرب العالمية الاولى وحين كان يقضي نقاهته في احدى المستشفيات بعد اصابته بجرح في ساقه، خطرت لرينوار، ولأول مرة، فكرة العمل في السينما، رغم أن تطبيق الفكرة عمليا كان سيأتي في وقت لاحق، أي بعد أن مر في دنيا الصحافة. وبينما كان رينوار يتكلم بعبارات وقّادة عن الحركة التعليمية، وصف المرحلة الصامتة للسينما التجارية الفرنسية بكاملها بأنها كانت راكدة وغير فعالة الى حد كبير.

لكن مع مجيء الصوت، ظهر تحول مفاجيء وسحري. وكما قال رينوار:

« كان الأمر وكأن أحد الناس فتح بابا سريا للتواصل بين صانع الفيلم وجمهوره. لقد كان شعورا رائعا. فكل ما كنا نفعله كان الجمهور يتفهمه. ولم يكن باستطاعة السينما الفرنسية ان تخطو تلك الخطوات الهائلة باتجاه النضج لولا وجود ذلك الجمهور المتفهم على نحو رائع. لقد ساعدنا هذا الجمهور كثيرا طوال الطريق الذي سرنا عليه، وانني شخصيا لأشعر بالكثير من الامتنان له».

دامت الفترة الفنية هذه حتى الاحتلال، ورغم انه لم يحدث اي تراجع في النوعية التقنية نظراً لأن الألمان كانوا تواقين لأن يبرهنوا عن اريحيتهم فيما يتعلق بالنشاطات الثقافية - فقد حدث بعد الاحتلال هبوط لا مناص منه في المضمون.

تكلم رينوار عن أحد افلامه الأولى وهو فيلم « الكلبة» باعتباره احد افلامه المفضلة. « خسارة، أنه كان عليهم أن يعيدوا اخراجه في هوليوود، وعلى نحو بالغ السوء» قال رينوار. (النسخة الثانية هذه اخرجها لانج ودعيت باسم « الشارع القرمزي»). ومن بين الروائع الكبيرة التي ظهرت في الثلاثينات، يحمل رينوار اعجابا خاصا بفيلم « أصول اللعبة» الذي كان من ابداعه تماماً، بل لقد مثل دورا فيه. اما قضية « حفلة في الريف» فقد كانت خاصة. اذ يبدو أن رينوار كان يبتغي تجريب الفيلم ذي القصة القصيرة. وبغية تسهيل الاستثمار التجاري، كان ينبغي انتاج فيلمين قصيرين هكذا، وقد بدأ رينوار بقصة لماباسان املا أن يتبع هذا الفيلم بفيلم اخر، انما اضطر لسوء الحظ، ان يتخلى عن الفيلم قبل انهائه تماما. وطوال فترة الاحتلال ظلت مسودة الفيلم مخفية بعيدا لدى أحد الاصدقاء لمنع اتلافها على أيدي النازيين، وبعد التحرير فقط، طبع الفيلم كي يخرج الى النور مع عناوين توضيحية تملأ الثغرات الموجودة في القصة.

واضطر رينوار نفسه لأن يشاهد « حفلة في الريف» كأي مشاهد آخر ففي ذات اليوم الذي دخل فيه النازيون باريس خرج رينوار منها، آخذا معه زوجته وما يستطيع حمله من متاع الدنيا في حقيبته الصغيرة.

من باريس توجه رينوار الى هوليوود. ورغم اشكالات التكيف حين يخرج المرء من وطنه، تلك الاشكالات التي لا بد منها، وجد الرجل ان الحياة في كاليفورنيا بهيجة تماما. فالمناخ جيد وفيها وفرة من الأصدقاء الجيدين، كان شابلين - المعلم - الذي يكفي ذكر اسمه فقط لأن يجعل وجه رينوار يشع بهجة، واحدا من افضل هؤلاء الاصدقاء. « إنه رجل حزين الآن». لا أحد في امريكا يفهمه» فسألته ان كان يعرف شيئاً عن خطط شابلين في المستقبل فقال: « حسنا، آخر مرة التقينا بها كان يفكر بعمل موسيقي تمثل الشخصيات فيه شخصيات سياسية معاصرة. لكنني لا أعتقد بأن مثل هذا العمل سيخرج الى النور إذ بدا خائفا من أن يسبب الازعاج لأحد، وكما تعلم لا يمكنك أن تصنع فيلما كهذا دون ان تزعج أحدا».

لم يتطرق رينوار لذكر أي فيلم من أفلامه الخمسة التي اخرجها في هوليوود سوى « مذكرة وصيفة» أو « ماء المستنقع». لقد اخرج فيلمه « هذه الأرض أرضي» كرد على الفكرة السائدة حينذاك في اوروبا وهي أن حركة المقاومة في اوروبا عبارة عن أسطورة وان كل شخص في بلد محتل كان يتعاون مع قوات الاحتلال. أما فيلم « ابن الجنوب» فقد استمتع باخراجه اساسا لأنه كان قطعة من